رنا سفكوني
من سوريا، مواليد١٩٧٩. كاتبة وصحفيّة.

صندوق البريد

. رنا سفكوني .

كانت أولى رسائله إليّ بغرض فتح جسرٍ بين غربته والوطن.
لـم نكـنْ نعـرفُ بعضنـا بعضًـا سـوى مـن خـلال جُمـلٍ تبادلناهـا عبـر الوسائل الإلكترونيّة.
قال: تعالي نتعمّد بالحبر، فنجعل وسيلتنا في اللغة ورقةً تمحو المسافات.
أرسلـتُ إليه عنواني البريديّ. بعد أيّامٍ وصلتني منه رسالـةٌ معنونةٌ بـ «أوّل الهذيان.»
فتحتُ المغلّفَ الصغير. كان يحوي بطاقةً لمدينة باريس كُتِبَ على ظهرها «من مسافةٍ بعيـدةٍ عن الوطـن سنكتبُ إلينا» وورقةً بيضـاءَ طرّزها بجُملٍ فَتحـتْ غوايةَ العناوين بيننا.
ومنذ تلك اللحظةِ صارت العناوينُ اختزالاً لاسم الوطن.

أوّل الهذيان

صديقتي:
بـتُّ لا أعرف كيف يُطـرحُ السؤالُ بين رجلٍ وامرأةٍ لا يجمعهما سـوى إشارةِ استفهامٍ تنتظر جوابًا قد يأتي بعد أيّام.
سأخبـرك في بادئ الأمر أنّي مقيمٌ في باريس منـذ أكثر من عشرين عامًا، وأنّي بعد كأس النبيذ الرابعة لا أستطيع الإمساك بسؤالٍ يجمع كلَّ الإجابات التي أبحثُ عنها.
هل يصلحُ أن أسألَ كيف حالُ الوطن؟
هل حقًّا أصابه الوجع؟
أينزف؟
أيصرخ؟
هل كسروا ضلعًا من أضلاعه؟
أم هو انسدادٌ في شريان القلب؟
الآن، لا أريـدك أن تكترثي لهذا الخطِّ المرتجف؛ فليست أصابعي هي التي تكتبُ تلك المخـاوفَ الهاربـة من سؤالٍ لا أستطيـع القبضَ على إشارة استفهامـه. إنه القلبُ يا صديقتـي؛ فقد نبتتْ لـه أصابعُ تمتدُّ، كلّما فاض الوجعُ بـه، إلى محبرة لا أدري كيف تحوّلَ حبرُها الأسودُ إلى ما يشبه الدمَ المتخثّر.
ربّمـا نسيتُ أن أسألكِ عن أحوالـك الشخصيّة، أو ربّما حالُك انعكاسٌ لحالِ الوطن، أو

ربّما باتت أحوالُنا مؤجّلةً إلى حين يصبح الوجعُ ذاكرةً بعيدةً.
أنتظرُ منك رسالتك الأولى.
مودّتي لكِ
طارق

❖❖❖

مضت أيامٌ وأنا أفكّرُ في الرسالة التي سأكتبها له. هل أخفّفُ من قلقه فأجمّلُ الحقائق؟ أمْ أسرد له قصّةَ الوطن كما أشعرُ بها؟ أمْ أُحوّلُ رسالتي إلى تقريرٍ إخباريٍّ كما تفعل محطّاتُ التلفزة؟
في نهاية الأمر قرّرتُ أن أكتبَ إليه من دون الاكتراث للأسلوب، إلا أنّي في سرّي كنتُ أتعمّدُ إيصاله إلى حافّة الأجوبة المتاحة؛ فقد كنتُ متأكّدةً أنّنا، على الرغم من محاولاتنا إيجادَ الحياد للإجابة عن سؤالٍ ما، سنقعُ في فخّ اللاإنصاف عندما نقترب من توصيف الحدث، وغالبًا ما تبوءُ توصيفاتُنا بالفشل لحظة وصولنا إلى منتصف الإجابة.

❖❖❖

ولأنّه أوّل الهذيان

نعم طارق..
الوطن ليس بخير. يقفُ على ساقٍ مرتجفةٍ، وأخشى أن يبدّلها بعكّازِ الموت.
في الصباح نستيقظ على تأوّهاتِ الجرحى والمعتقلين. أحدُهم يضغط زرَّ عدّاد الموت. نجلس أمام الشاشة نترقّب الرقمَ الذي يتصاعد كلَّ ساعة. ما نلبث أن نتحضّرَ لفاجعةٍ، ربّما هي المجزرة، لنفجّرَ كلَّ عدّادات العالم قهرًا وحزنًا وعجزًا.
أدركُ أنّكَ ستقدّر غيابَ الفرح في رسالتي. الآن تهاجمني فكرةٌ خرقاءُ، وكأنّنا قمنا بعقد اتفاقٍ غير معلن على تغييب حكاياتنا الشخصيّة.
ها أنا أهجسُ بأسئلةٍ تحاصرني في اليقظة والنوم.
صارت تلاحقني صورةُ سوريا تضع يدَها على بطنها المنتفخ.. تتلمّسُه.. وتسأل:
أهو حمْلٌ كاذب؟
أمْ جنينٌ مشوّه؟
أمْ تخمةٌ زائدةٌ بالبشر؟
وكم من المرّات أدار لنا السؤالُ ظهره.. ومضى.
مودّتي
سلمى

❖❖❖

خوف

مودّتي
سلمى:
رأيتُ على محطّات التلفزة أنّ المدن محاصرةٌ بالدّبابات، وأنّ شبحَ الموت يقفز من مدينةٍ إلى أخرى. صورٌ لآليّاتٍ عسكريّةٍ، وجنودٍ يحملون عتادَهم الكامل. بشرٌ يتساقطون من السماء كالمطر. أيّ محصولٍ سينبت في البلد؟
يَصعقُني الخوفُ كلّما مددتُ يدي إلى جريدةٍ تحمل خبرًا عن الوطن. الخوفُ، سلمى! الخوف بات رجلاً ينهض نحوي ويبدأ بركلي وضربي، على الرغم من المسافة التي تفصلني عن مكان الحدث. البارحة فقط أدركتُ كيف نسقطُ باتّجاه هاوية الرعب، حين كنتُ أمشي في شوارع باريس الفارغة من ضحكات أطفالنا، تلك الشوارع الموحشة كقبرٍ لا يزوره أحد. للحظةٍ، شعرتُ بخُطاي تمشي في دمشق، أو ربّما تهرول بين المتظاهرين خشيةَ رصاصة طائشة.
أأهذي؟
كأنّي بدأتُ أفقدُ حاسّةَ الشمّ ببحثي عن هواءٍ آخر خارج باريس.
طارق

❖❖❖

حاجز الخوف

طارق:
معك حقّ. فحين نبتعد بالمسافة عن الموت، يصبح الخوفُ مضاعفًا. الناس يدفّون مساميرَ الوجع ليعلّقوا صورَ شهدائهم على جدارِ الخوف. من كثرةِ صورهم انهارَ الجدار. من ثقل الموت اهتزَّ الخوفُ. مَن فقد طفلاً أو أبًا أو أخًا أو أمًّا، خرجَ ليشيّعَ الخوفَ مع جثامينهم. الخوف تجاوز الأرواح إلى مكانٍ آخر. بات الرعبُ الأكبر أن يتوهَ مفهومُ الوطن، أن تشوّه أحلامُنا فيه، أن نفقدَ عناوينَ من أحببناهم.
تخيّلْ أنّهم يطالبوننا بسحق ذاكرتنا، واقتصاص عمرٍ من أعمارنا ووضعه في خندقٍ للموت. وما أكثرَ الخنادقَ في هذا الوطن: كلٌّ يريدُ حفر خندقه ليقتلَ عدوَّه في الجهة المقابلة من الحياة. ومن دون سابق إنذارٍ، تحوّلت الخنادقُ إلى مقابرَ جماعيّةٍ.
ما أريده منك هو أنْ تحوّلَ خوفك إلى قوّة؛ فرغم هشاشة طلبي إلا أنّي لا أملكُ سوى مطالبتك بالوقوف مكابرًا أمام الألم.
سلمى

❖❖❖

حمص؟

كيف؟

كيف؟؟

قولي كيف حدث؟؟؟

قولي إنّ ما أسمعُه من أخبارٍ ما هي إلا بمنزلة كذبة الأوّل من نيسان!

أو قولي لي إنّي لم أستيقظْ بعد، وإنّي مأخوذٌ بكابوسٍ سينتهي بعد قليل!

قولي أيَّ شيء!

سلمى، هناك مَن يمتصُّ الهواءَ في رئتيّ. أشعرُ بالمسافة وكأنّها حبلٌ مشنقةٍ يلتفُّ على عنقي.

أشعر أنّي حمص.

أنا أختنقُ، سلمى. أخرجيني برسالةٍ تبدّدُ هذا الهراء. أعيديني إلى الحياة بالقول إنّ ما حدث كان عرضًا سينمائيًّا فاشلاً.

❖❖❖

بماذا أخبره؟

بعددِ القتلى؟

بسقوطِ المدن في يدِ الطغاة؟

بتجارة الموت المزدهرة؟

لم يكن أمامي سوى الصمت.

بعد أسابيع من رسالته الأخيرة وصلتني رسالةٌ منه بلا عنوان.

وقفتُ أيّامًا أردّد أمام الرسالة: «لن أقرأك.. لن أقرأك...»

لكني فتحتُ الظرفَ الصغير.

❖❖❖

؟؟؟

سلمى يا وطن!

اشتقتلك.

خايف عليكي. أنا انتظر..

فقط.. أنا

❖❖❖

بكيتُ. بكيتُ عن الأمّهاتِ اللواتي فقدن أولادهنّ.. عن الأطفال الذين أصبحوا في عدادِ اليتامى.

بكيتُ على رجالٍ يقاومون منطقَ البكاء.. على الشوارع والمدن والقرى والساحات.. عن الذاكرةِ والجيرة والأقارب. وربّما بكيتُ عن القاتل والمقتول.. وعن قبرٍ كبيرٍ يتّسعُ لنا جميعًا.

كتبتُ رسالتي إلى طارق، وقلتُ فيها:

«يأخذني إليك حلمٌ اسمه الوطن. ها أنا أمدُّ يدي في محاولةٍ لابتلاع المسافة بيننا؛ فعلى أحدنا أنْ يمسحَ الدمع، وعلى الآخر أن يبكي. نعم، أريدُ تبادلَ الأماكن والأدوارِ والمواقف بيننا. وأريدُ أنْ أكونَ أنا صاحبةَ إشارةِ الاستفهام، وأنتَ صاحبَ الإجابات.

تعال نلتفّ على الوجع بنصفِ دائرة. فلتكن لي المسافةُ، وليكن لكَ المكان هنا. حينها فقط ربّما يحقُّ لي الصراخُ عاليًا: تعبتُ، تعبوا، تعبنا.

وأنا أيضا أشتاقُ إليك اشتياقي إلى هذا الوطن...»

انكسارٌ واحدٌ فقط كان ما تحتاجه الرسالة. في الخطِّ المنكسر في منتصفها تمامًا، كنتُ أخبّئ رغبتي في الرحيل إليه. طويتُ الرسالة ووضعتُها داخلَ ظرف، وأدخلتها الدُّرجَ الذي أبى القلمُ سابقًا أنْ يدخل إليه. ربّما كنتُ برسالتي الأخيرة، التي لم أُرسلها، أتعمّدُ تفخيخ صندوقِ البريد بالغياب.

❖❖❖

.....

سلمى.....!

.... ؟؟؟

أنا